العرب
الأحد 2020/02/09
السنة 42 العدد 11612

الرواية التاريخية

لا يمكن الحديث عن الأدب إلا من خلال أجناسه. كما أنه لا يتأتى لنا تناول أيّ جنس منها بدون الانطلاق من أحد أنواعه. يتقاسم الإحساس بنوعية الأجناس الأدبية كل من القراء والكتاب، ضمنا أو مباشرة. فحين يقرر كاتب ما إبداع عمل أدبي، فهو ينتجه في نطاق القصة أو الرواية أو القصيدة مثلا، ضمن تصور عام للأدب تلتقي فيه كل الأشكال الأدبية. وفي الوقت نفسه، يبدع ذلك الأثر في نطاق النوع الخاص الذي ينشغل به، مراعيا في ذلك القواعد الخاصة بهذا النوع على وجه الإجمال. ويمكن قول الشيء نفسه عن القارئ. فالذي يتجول بين الأروقة الخاصة بالأدب في مكتبة خاصة أو عامة، يختار منها ما يتلاءم مع ميولاته. إن عاشق الرواية البوليسية غير المهتم بالرواية العاطفية، أو التاريخية. وقس على ذلك. وكل قارئ لأيّ نوع تتشكل لديه خطاطات عامة لقواعد أيّ نوع فيمكنه ذلك، عبر التفاعل مع ما يقدمه له الإنتاج الأدبي، من تحقيق المتعة أو الفائدة المراد تحصيلها من وراء عملية القراءة.

سعيد يقطين
ناقد مغربي

الدراسة الأدبية تختلف باختلاف الاتجاهات والمدارس والحقب التاريخية. فالناقد غير العالم، وهما معا غير المربي، أو الإعلامي. فالناقد، حين يدرس الرواية يكون أحد اثنين: إما أنه يؤمن بنظرية الأجناس، ويفرض عليه ذلك التعامل مع العمل وفق إجراءات ومقتضيات النوع لغايات ومقاصد ينشدها من وراء هذا الاهتمام. وحين يكون العكس يشتغل بأيّ نص سردي بغض النظر عن انتمائه النوعي، وتكون لذلك أهداف أخرى.

الأدب ونظرية الأجناس

لا يمكن الاشتغال بالنوع السردي إلا من عنده تصور عام عن الجنس السردي، وفي نطاقه يتعامل مع أيّ نوع. لذلك نجد الدراسات التي تهتم بالأجناس ونظريتها قليلة بالقياس إلى الدراسات النقدية. إن أول أثر عمل على تأسيس نظرية متكاملة لأجناس القول والإبداع تحقق مع أرسطو في كتابه "البويطيقا". وظل هذا الكتاب يمارس تأثيره في تصنيف الأعمال إلى القرن العشرين. بل إن أثره امتد إلى الدراسات العربية التي ظلت تنطلق منه في تصنيفها، ولا سيما في العصر الحديث تحت تأثير الدراسات الأدبية الغربية. لا ريب أن هناك محاولات كثيرة حاولت القيام بهذا العمل لكنها لم تصل قط إلى "القانون" الذي سطره أرسطو. ولعل أهم إعادة قراءة بويطيقا أرسطو من حيث تركيزها على البعد الجنسي تتجلى فيما قام به جيرار جنيت في كتابه "معمارية النص".

وفي العصر الحديث، وبسبب تغير أشكال التعبير وتعددها، بدأت تظهر محاولات جديدة، لكنّ أيّا منها لم يصل إلى المنتهى الذي يمكن أن يقدم صورة متكاملة وشبه نهائية لما يمكن أن تكون عليه الأجناس والأنواع وقد تنوعت بتنوع الوسائط، وتعددت بتعدد التجارب الإبداعية. فكان أن بدأت تظهر قناعات باستحالة التمييز بين الأجناس والأنواع لزئبقيتها، وتداخل بعضها مع بعض. ومع هيمنة مقولة النص تحت تأثير الدراسات اللّسانية، بدأ يقع التسليم بلا أهمية الجنسية والنوعية. هذه الدعوى تلقفها التجريبيون من الكتّاب، ودافع عنها ثلة من النقاد. لكن ذلك لم يمنع من استمرار التمييز بين الجنس والنوع، لدى الكثيرين من القراء والمبدعين في الغرب، وأغلب الدراسات الأدبية المعاصرة تتعامل مع الأدب من خلال أجناسه وأنواعه. بل إن العديد من الاختصاصات قصرت اهتمامها على جنس معيّن (السرد مثلا)، أو التركيز على نوع خاص منها (الرواية البوليسية مثلا). أما في الوطن العربي بسبب غياب الاهتمام بالدراسة الأدبية من مختلف جوانبها، فقط تم تعطيل الوعي الجنسي والنوعي، فكان عدم التمييز واقعا يشهد به الإبداع والنقد معا.

الرواية العربية بلا أنواع؟

لقد تطورت الرواية العربية منذ منتصف القرن الماضي، وصار لها حضور يفرض نفسه على غيرها من الأجناس والأنواع، ولا سيما الشعر الذي ظل يحتل المكانة الأساسية في الإبداع العربي. وإذا كان الحديث عن الأنواع الروائية العربية ممكنا قبل هذا التاريخ (رواية تاريخية، واقعية، رومانسية، رمزية، رواية جديدة...) فإنه منذ هيمنة مفهوم النص في الأدبيات العربية تقلص الاهتمام بها، وصار ادعاء كتابة "رواية" كافيا للدلالة على عمل له شرعيته الإبداعية.

إن عدم التمييز بين الأنواع الروائية العربية جعل كل عمل سردي، أيّا كانت طبيعته "رواية" ما دام الكاتب يضعها مُناصّا لعمله. لا فرق في ذلك بين رواية في تسعين صفحة، وأخرى في مئتين، وثالثة في ثلاثية أو خماسية. كما أنه لا فرق بين الرواية حسب الموضوع أو الطبيعة أو الوظيفة. كل شيء رواية. كما أن الدراسات الأدبية العربية، وهي تهمل البحث في أنواع الرواية التاريخية، أو في تغييب أيّ قراءة للرواية وهي تتصل بالتاريخ مثلا ظلت حبيسة تحليل نصي، بغض النظر عن قيمته، لا يبحث إلا في ما تشترك فيه الروايات المختلفة، فكان ذلك حائلا دون التوقف عن خصوصيتها في تعاملها مع التاريخ.

> لقد تطورت الرواية العربية منذ منتصف القرن الماضي، وصار لها حضور يفرض نفسه على غيرها من الأجناس والأنواع، ولا سيما الشعر الذي ظل يحتل المكانة الأساسية في الإبداع

حين نتجاوز هذا الواقع المعطى في الوطن العربي نجده مختلفا عما تعرفه الآداب العالمية المتطورة حيث الأنواع الروائية متعددة، وهي تثري بجديد الأنواع المستحدثة، ولا أدل على ذلك من الرواية التاريخية التي ما تزال تحظى بمكانتها السردية، بل إنها ازدادت وتضاعفت منذ أواخر القرن الماضي، وسط الأنواع الروائية الأخرى، وقد عرفت تطوّرات كبيرة في صيرورتها جعلتها تختلف عمّا كانت عليه منذ تشكلها في الآداب الغربية.

إذا أخذنا الرواية التاريخية نجدها قد تأسّست في الوطن العربي على يد جورجي زيدان في بدايات القرن العشرين، على غرار الرواية التاريخية الغربية، وكتب في نطاقها الكثير من الروائيين العربي إلى خمسينات القرن الماضي مشددين بشكل أو بآخر على أنهم يكتبون الرواية التاريخية. لكن منذ الستينات صار التأفف من اعتبار روايات تنطلق من مادة تاريخية محددة رواية تاريخية. وظل هذا المنوال ساريا، إلا فيما ندر إلى الآن. ونجد ترجمة لذلك على مستوى الدراسات الأدبية في إقدام الباحث عبدالله إبراهيم على استبدل "الرواية التاريخية" بما أسماه "التخييل التاريخي" بحجة أن ذلك "سوف يدفع بالكتابة السردية المتصلة بالتاريخ إلى تجنب ما يثار حولها من خلاف كلما نوقشت قضية الأنواع (الأجناس) الأدبية، وحدودها، ووظائفها، وسيتولى فضلا عن ذلك، ردم ثنائية الرواية والتاريخ".

إن اقتراح هذا الاستبدال لا مبرّر لها منهجيا ولا نظريا. ولعل السؤال حول قيمته المضافة إلى التحليل يمكننا من معاينة أن تجنب ما يثار حول قضية الأجناس الأدبية لا يضيف شيئا بل إنه يكرس تصورا يناقضه واقع الحال. إن نظرية الأجناس مبحث مركزي في الدراسات الأدبية كيفما كان اتجاهها. كما أن ردم ثنائية الرواية والتاريخ يجعلنا نتساءل ما معنى هذا الردم؟ فالرواية رواية، والتاريخ تاريخ. ولا يمكن إلا أن تقام بينهما علاقات متعددة الأبعاد، والأشكال. إنّ بوسع الرواية أن تقيم علاقات مع الجغرافيا، والاجتماع، والنفس... دون أن تفقد خصوصيتها لأن المسألة تتعلق بكيفية التعامل مع الاختصاصات والموضوعات.

وهذه الكيفيات هي التي تحدد الأنواع الروائية، وتؤكد إمكانية تطورها.

إن استعمال "التخييل التاريخي" محل "الرواية التاريخية" يعني استبدال مصطلح نوعي بآخر. وأيّ نوع، كيفما كان، إذا ما أتيح له أن يتطور في الزمان، ويستقطب الاهتمام الإبداعي، لا يمكنه إلا أن يعرف تحولات على مستوى بنياته ووظائفه، فيصبح بذلك متضمنا لأنواع فرعية، تماما كما وقع مع الرواية التاريخية الغربية والعربية أيضا.

ومعنى ذلك بكلمة أخرى، أن التخييل التاريخي قابل لأن يتضمن أنواعا فرعية مع الزمن، وإلا كيف تتساوى الروايات في تعاملها مع التاريخ؟ فهل استبداد المماليك هي السائرون نياما؟ وهل معا هما الزيني بركات أو العلامة؟ وقس على ذلك. إن العلاقة بين الرواية والتاريخ لا ينبغي أن تردم، ولكن علينا أن نعمل على استكشافها لمعاينة كيف يبني الروائي علاقته بالتاريخ؟ ولماذا؟ وبأيّ طريقة؟ ولأيّ مقاصد؟ ويمكننا الجواب عن هذه الأسئلة من تحديد الفروقات بين الروايات وهي تتعامل مع التاريخ من خلال الوقوف على نوعياتها.

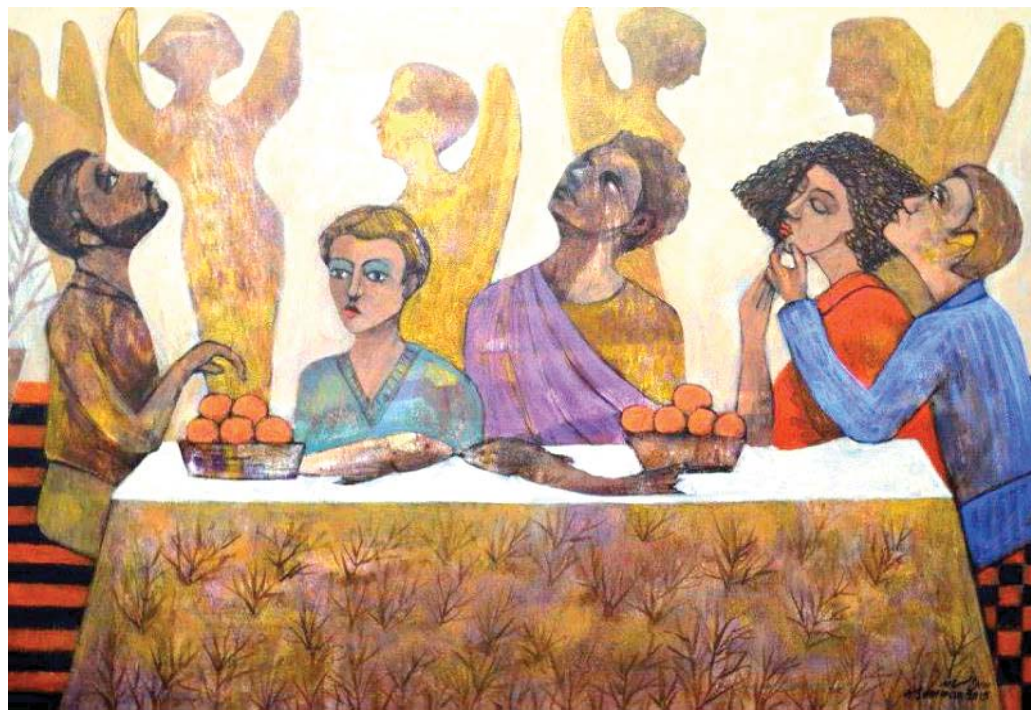

لوحة نبيل السمان

فعل مضاد للتاريخ

خيري الذهبي
روائي سوري

التاريخ، وكم يعشق العرب التاريخ وكم تعلقوا به في جميع نواحي حياتهم، حتى بات وحشاً التهم مستقبلهم. التاريخ هو روايةَ المنتصرين الذين أرادوا أن يسجلوا للأجيال التي تليهم روايتهم عما حصل وجرى معهم من أحداث وتفاصيل، ومن هنا تتضارب سير التاريخ وتفاصيله بين المنتصرين والمهزومين، ومن هنا خرجت في القرن العشرين المجموعات البحثية التي سمت نفسها بالـ"المراجعين" أي أولئك الذين رفضوا التاريخ الذي وصلنا كما هو وقرروا البحث في حقائقه وتفاصيله ليعيدوا كتابته كما لو أنه لم يكن، تصحيحاً وبحثاً نحو الحقيقة.. وحينما نتحدث عن الحقيقة.. فالسؤال الأهم.. هل هناك حقيقة في عالمنا هذا؟ هي وجهات نظر.. هناك من يرى العرب فاتحين.. وهناك من يراهم غزاة، وهناك من يرى تيمورلنك مجرما وسفاحا.. وهناك من يراه والد الأمة وقائدها، وقس على ذلك.

التاريخ هو تلك الرواية الجمعية التي اتفق عليها المنتصرون وفرضت على من تلاهم، وتبناها من اتبعهم، تبنوها لدرجة العبادة والتقديس.

أما في عصرنا الحديث فصراع الإنسان مع ذاته ومع عالمه المحيط جعله وعيه يطور أساليب سردية غاية في المهارة والإبداع، جعلت وتجعل من كل فرد "منتصر" بينه وبين نفسه على القدر، ويحق له بالتالي أن يروي للآخرين تاريخه كما يراه، وكانت بالتالي "الرواية" كفن سردي، توثيقي، تخييلي، مواز للحقيقة، وربما مجاور لها.

الرواية هي التاريخ حينما يتحول إلى فن، هو صنعة النجار الفنان الذي يدخل إلى غابة من الأخشاب المقطوعة وغير المقطوعة، فيعمل عليها الراوي محوّلاً إياها إلى أعمال فنية غاية في الروعة، تنسي النظارة ما هو أساسها، ولكنها تبقى في النهاية خشبا من تلك الغابة التي اسمها التاريخ، ولربما تكون الرواية تاريخا شخصيا كما فعل باتريك وزسكيند في "العطر"، وربما تكون تاريخا لعائلة كما فعل نجيب محفوظ في ثلاثيته وكما فعل خيري الذهبي في ثلاثيته "التحولات" أيضاً، ولربما كانت تاريخ مدينة كما فعل أورهان باموق في "إسطنبول" أو ربما كانت تاريخا لهذا العالم الذي نعيش فيه كما فعل أنوورويه دو بلزاك، وربما كانت تاريخاً لعالم نتوقعه، عالم بشع نخشاه كما فعل ألدوس هكسلي في روايته "عالم جديد شجاع"، أو رواية لعالم نحنّ إليه ونتمناه كما فعل يفيغيني زمياتين في رواية "نحن".

الرواية فعل مضاد للتاريخ، يكتبه "المراجعون الجدد" المنتشرون في أصقاع الأرض، ممن يودّون أن يسردوا رواياتهم التي نبذها التاريخ الرسمي التي حقرها التاريخ الرسمي، والتي لم يعترف بها ذلك التاريخ الرسمي، فحينما كانت سلطات الاتحاد السوفييتي على سبيل المثال تسيطر على روح المجتمع السوفييتي وتصادر حرية تعبيره، كان بولغاكوف يسرد في روايته "المعلم ومارغريتا" تاريخاً مضاداً مشفراً ومرمزاً، كي يستطيع المرور عبر آليات الرقابة والمصادرة والاعتقال، استطاع بولغاكوف أن يتحدث عن كل شيء في تلك الرواية، عن جيله ومشاكله وعن حالته الشخصية وعن الكنيسة والإيمان والشيوعية والإلحاد، وعن المجتمع الروسي والكي جي بي، ممرراً تاريخه كما تفعل الطوائف الدينية الصغرى في نصوصها المقدسة من ترميز وتلغيز ومواربة، فقال التاريخ الذي لم يقله المنتصر ستالين آنذاك، بل روى تاريخه كمهزوم، وسجل لنا وللشعب الروسي تاريخ فترة من أصعب فترات حياته.

مصطلح علم التاريخ مصطلح غريب ودخيل على العربية، أو على البدو الذين كانوا يؤرخون شفهياً، وفي كثير من الأحيان حسب رغبتهم لمستجدات الصراع بين القبائل العربية، وليس من يعرف متى دخل مصطلح التاريخ "كعلم" إلى العربية، وفي زمن مَنْ من الخلفاء دخل إلى العربية؟ وكان العلم ما يزال تعلماً يحبو على طريق المعرفة، ولكن استخدام هذا العلم ولو بطريقة بدائية كان واضحاً جداً، فلقد تم التعرف على بدايات علم التاريخ من الكهنة في الأديرة والذين كانوا متفرغين لكتابة التاريخ، أو من المعلمين الذين أسرهم العرب في فتوحاتهم، وكانوا حريصين على استكمال كتابة التاريخ، وهذا له معنى واحد، أي أن التاريخ العربي كعلم بدأ منذ خروج القبائل العربية من الجزيرة، وانتصارهم على الروم وطرد الفرس عن العراق العربي ثم الأعجمي.

لوحتان لعدنان حميدة

> الرواية فعل مضاد للتاريخ، يكتبه «المراجعون الجدد» المنتشرون في أصقاع الأرض، ممن يودّون أن يسردوا رواياتهم التي نبذها التاريخ الرسمي التي حقرها التاريخ الرسمي، والتي لم يعترف بها ذلك التاريخ الرسمي

وبالاختصار احتلالهم أو تحريرهم "حسب رأي القارئ والكاتب في حركة التاريخ" عن البلاد التي كان هنالك مشترك لغوي وربما قرابيّ بينهم وبين الجزيريين الخارجين من عالم التقشف إلى كل شيء حضاري، بل، وربما تأخروا بعض الشيء في استخدام العلم الجديد حتى أواخر العصر الأموي، فهم لم يعرفوا قبل ذلك عن استخدام العلم الجديد عليهم أعني علم التاريخ، وليس عن عبث اضطراب الفكر التاريخي لدى القبائل العربية قبل الخروج الإسلامي الكبير إلى بقايا الإمبراطوريتين "الفارسية" والتي قضوا عليها قضاء مبرماً بحيث لم يتركوا للفرس إلا مضغ الحقد على مدمر دولتهم الإمبراطورية، وتسبب في تفكيكها لقرون طويلة، والإمبراطورية الرومانية التي حملت اسم اللاتينية أولاً ثم البيزنطية بعد الانشقاق بين الشعبين واللغتين والحضارتين، وطردها خارج العالم العربي وربما لم يكن يتسمى علم التاريخ بالعربية علم "تاريخ" قبل الفتوح الإسلامية بلغة عربية أو بصوتيات عربية مأخوذة عن اللغات المشرقية السابقة للعربية.

وعودا إلى كلمة التاريخ والذي اشتقته العربية وما قبل العربية "الساميّة" من كلمة يرخو، والتي تعني القمر، أو مرور الأحداث على الأرض "كل يرخو"، أو "قمر"، أو بالتعبير المعاصر "في كل شهر قمري"، ولما كان العرب في خروجهم من جزيرتهم قد روضوا أنفسهم على التأقلم مع الحداثة والعصر، فلقد أعادوا صياغة "يرخو" لتدخل في العربية على شكل "أرّخ يؤرخ" ثم اشتقوا منه اسم الـ"تاريخ" أو "التقمير" لمن القمر تصبح الدلالة أن هذا الحدث أو ذاك قد وقع في هذا الظهور للقمر في السماء! والتاريخ كصنعة لا يقبل التورية والألعاب الأدبية، بل يفترض الدقة والتتابع، ولكنه عند العرب وأهل المشرق، طرّزّ وزركش، وباتت الصنعات الأدبية تدخل عليه حتى صنعوا تاريخاً ربما ليس بتاريخ، وربما كان يوميات، وربما كان قصاً وحكايات، وتاريخاً أسطورياً للمنتصرين، كما فعل الظاهر بيبرس.

بيبرس كان يعيش منذ طفولته في معسكر للعبيد في دمشق، يستمع إلى القصاصين والحكواتية، يتحدثون عن بطولة الترك وهزيمتهم للفرس، وكان يعرف أن الفرس قد صنعوا ملاحم لقتالهم الترك والمغول والبخاريين، كما فعل الفردوسي في كتابه " الشاهنامة".

وحينما صار المملوك الصغير قائداً حقيقياً ومنتصراً أيضاً، قرر أن يدخل التاريخ مثل أتيلا، الذي هدم أوروبا قبل أن يموت، فاستدعى المنادين وأعلن عن جائزة نقدية كبيرة لمن يستطيع وضع كتاب عن انتصارات الظاهر بيبرس على الصليبيين في بلاد الشام، وتقدم الكثير من الفطاحل من الكتّاب في عصره، لكتابة المأثرة الإسلامية، في هزيمة الفرنجة والفرس، فقدم ابن شداد للظاهر بيبرس نسخة لم تصلنا، يجيب بها على كل أسئلة الظاهر بيبرس في الخلود والمجد وتغيير التاريخ، أو كتابة التاريخ كصنعة تفاخر بها الأمة المنتصرة الصاعدة تلك الأمم التي كتبت الشاهنامة والإلياذة وغيرها- واستمع بيبرس البندقداري منه حتى سئم، ورفض ما كتبه له، فليس هذا هو الحلم الذي تخيله بيبرس لتاريخ سيروى عنه في انتصاراته التي رآها لا مثيل لها في التاريخ، ثم تقدم ابن عبدالظاهر في كتابه عن انتصارات الظاهر على بقايا الأيوبيين والصليبيين، ولكنه استمع إليه بينما كان يشرب البوظة ورفض كل ما سمع في ملل.